

قصة من كتاب "من ظلال الأمس" للدكتور فؤاد سلوم

--- قصص تراثية ---

"لمن تُقرع الأجراس"

أدركته في سبعيناته. عرفت أخباره منذ عرفت أن أصغي، وأن تسجّل ذاكرتي ما حلا في سمعي من أحاديث، وما انطبع في نفسي من أحداث.

عمّي طنّوس يوسف نادر حاكمة قديح. اسمه، كاملاً، كما في سجلّ عماده. هو نسيب بعيد لأبي. أناديه: عمّي. وينادونه: بو يوسف.

مربوع القامة. مهيب. كقاعدة تمثال. أشيب الشاربين المعقوفين. أجدد الوجه. صارم ما بين الحاجبين وما حول الفم. مززم جلد المحجرين. أصفر العينين، صغيرهما. تتقلب أجنانه إلى فوق وإلى تحت، فكأنّه ينظر من شقين... لم أره مرّة حاسر الرأس. يلفّه بشال صوفي صيفاً شتاءً.

وعمّي طنّوس مشهور بمهنته، متميّز بطباعه الغربية: مهنته الدائمة "مقالجي". لمهنته في مشاعات البلدة مقتلات صخور، وفي البيوت الكثيرة حجارة قطيعات شاقوفة. أمّا مهنته الموسميّة فحصّاد لا يناظره حصّاد. يترابطه أصحاب الزّرع منذ تسنبل الحقل في الربيع، لما في ضميره من حرّيّة، وفي زنده من عزم، وفي منجله من مضاء.

من طباع عمّي طنّوس الجرأة السّاخرة. مباده حتّى التهور. يتصرّف بما هو خارج عن المألوف، فيدهش، ويترك عبراً باقيات على الزّمن!...

ومن طباعه، أيضاً، القدرة على احتمال الألم، والصّبر العجيب: على التّعّب، على العطش، على الجوع، على صروف القدر، على غلاظة النّاس! وعلى امرأته!...

كان أوّل من يصل المقلع صباحاً، وآخر من يغادر مساءً. ومع ذلك كان يتحامل عليه أصحاب الورش. يبتزّونه... يوم "دقرة"¹ بو نجيب بكر كعادته، واستمرّ بعد فكّة الفعلة عند العصر. استغلّ الفرصة بو نجيب البخيل الطّماع: قال:

¹ أرض صحراء، أي مليئة بالصخور، لا تصلح للزراعة. سريانية

- لي غرض في السّاحة (حيث سوق البلدة). ريثما تكون، يا "بو يوسف"، انتهيت من تكسير "الدقرة"، أكون قد عدت.

ومضى بو نجيب مسرعاً، لا يلتفت إلى الورا، لا يريد أن يسمع، لا يريد أن تلتقي عيناه عيني بو يوسف، يستحييه ليضمن بقاءه حتّى العتمة!... وحتّى إذا ما انتهى من تكسير الدقرة، يكون بو نجيب قد وفرّ أجر يوم عمل إضافي...

استقام أبو يوسف، أرخى "المخل"² من يده، ونظر إلى ظهر بو نجيب الذي ابتعد مهرولاً. صاح!:

- خيي بو نجيب. خيي بو نجيب!

التفت بو نجيب. ردّ ببعض الحدة:

- أمر!؟

- عمال معروف. جبلي معك، من عند غصن، عقدة حبل "عصفوري"³.

- عقدة حبل عصفوري!؟

- نعم م م م!

- شو إلك فيها؟ بدك تفتح دكان حبال!؟

- لأ. بدّي أربط الشمس حتّى ما تغيب قبل ما تخلص دقرتك!

ابتسم بو نجيب، خائباً. قال، وهو يعود، وقد بطل أن تكون له حاجة في السّاحة:

- يلعن شيطانك! بدك تروح؟ إي معلش. منكفيها بكرا. وبتعمّر "المعبور"⁴ كمان.

* * *

من، ابن امراة، ليس له صليب يثقل منكبيه!؟... صليب عمّي طنّوس، بل صليب عائلته، كان امرأته نجمة! كان لنجمة سطوة غريبة عليه! يهابها، يذعن ذليلاً أمام تسلّطها، يسكت مدحوراً أمام سلطتها. ما كان سرّ سطوتها عليه!؟ هي نجمة، " لا حسان، ولا لسان، ولا طيز ناعمة!"، كما كان يمثّل أهل الحيّ مبهوتين... وجه نجمة قرص كبير مفلطح باهت البياض في بعض اصفرار، على جسد بدين مترهل. رخوة المفاصل، فكأنّها شبه كسيحة! لكن صوتها قويّ صدّاع. نفسها متطلّبة

² العتلة الرافعة. سريانية

³ نسبة إلى الجمال العصافيريّة القويّة

⁴ فتحة موقنة في حائط البستان

ملحاح. عدائيّة، لا تتوانى عن شتمه إذا قصر في خدمتها، ولو عن غير قصد. أمّه "حاكمه" هدف شتائمها.

كان عمّي طنّوس يسكن "هاك القاطع". يفصل بين الحيين المتقابلين زقاق اسمه "التّاروع"⁵. في الشّتاء، إذ تغزر الأمطار، يدفع الوادي بحمولته، ينشرها في التّاروع، فيعلو الماء إلى ما تحت ركبة الرّجل بقليل، فلا يعبر العابر إلاّ على دابّة أو تبتلّ رجلاه...

وكان دأب نجمة أن تسهر كلّ ليلة في حيّنا حيث أهلها وأقرباؤها، أظلمت الليالي أم أقمرت، صحت السّماء أم امطرت! تقول اللّيلة السّهرة في بيت فلان. على الفور يعمد طنّوس إلى الفانوس، يتفقد زيتته، يجريّ فتيلته، يجرّ فحمته. إذا قالت نجمة اللّيلة السهرة... فالقول قولها، وليس على طنّوس إلاّ التّأهب والانصياع... ليس في الفانوس زيت...، ليس في البيت كاز؟. هذا ليس شغلها. هذا شغل طنّوس. ليتدبّر حاله!... لذلك، طنّوس، دوماً، مستعدّ. يعرف شغلها، يحسب كلّ الحسابات. حتّى "الكواكيش"⁶ من "اللّقش"⁷، يعدّها طنّوس منذ الصّيف. يشعل طرف الكاكوش، يهزه أمامه في الهواء فيتلظّي، فيمضي وإلى جانبه نجمة تسير على نور. في أيّام الصّحو. في أيّام المطر؟! يستعين طنّوس بلهيب "الكاكوش" ليتبين مواطىء قدميه. إمّا يطفىء المطر جانبه، يداره بجزعه المنحني، يقبّبه وجهاً لظهر، ليعاود اشتعاله طارداً بلل الوجه الآخر، بينما نجمة على ظهر طنّوس يخوض بها المجاري والوحول، وهي مرتاحة. في التّاروع، إذ يطمو، يخلع طنّوس نعليه، يحملهما، يشمّر، يركب نجمة ظهره، ويخوض في الماء. تتراخي مفاصل نجمة، فتتمدّد على ظهره، تكاد رجلاها تلامسان الماء، فتتهره شاتمة:

- رايحة أطمس! ارفعني! يحرق دين بزاز أمك "المطوطحة"⁸.
يرفعها طنّوس ما استطاع، يمضي وكأنّ لم تطرق أذنيه شتيمة.

في أواخر أيّام نجمة، وقد ذهب بصرها، وثقل سمعها، أقعدها مرض، عطّل حواسّها إلاّ الحنجرة. عصا علاجه فرست في "تختها"⁹ العتيق. صار طنّوس ممرّضها وخدمها وكافي حاجاتها... لكنّها

⁵ مضيق في أسفل الوادي تجتمع فيه السيول. سريانيّة

⁶ عود محترق طرفه. سريانيّة

⁷ صمغ الصنوبر اليابس يصنع منه القطران، شديد الالتهاب. سريانيّة

⁸ الممدودة المدلاة. عاميّة

⁹ سرير. فارسيّة

بقيت على عاداتها: نقّافة، متطلّبة، ملحاح، لا تتعب من إزجاء الطّلب غبّ الطلب، ودائماً غير معجبة بطنّوس: يا طنّوس خود، يا طنّوس روح، يا طنّوس تعا. يا طنّوس وين صرت؟ يا طنّوس! يحرق دين طنّوس. ويا طنّوس. ويا طنّوس...
وتكلّم نفسها بصوتها العالي، إيّاه: "طنّوس، قال طنّوس! يا عمّي ويّن في مرّة تجوزت زلمي اسمو طنّوس، وسعدت؟! وليّ يّ ه على حظك الأسود يا نجمة"...

وكان عمّي طنّوس يحتمل النّقّ ما استطاع عبد مامور أن يلبي طلبات امرأة، فكيف إذا كانت ذات خصال؟! "ويا ويلي من النسوان!"
يهزّ طنّوس برأسه من غير أن يفصح! لم يكن طبع نجمة النّكد يلطع زوجها فحسب، بل ابنتيها ووحدها... دفعت الابنتين إلى الزّواج مبكرتين، فكانت زيجتهما مسكينتين. أمّا الصّبيّ الوحيد، يوسف، "فطفش"¹⁰ من البيت، ثمّ تطوّع في الجيش. لكنّه وقد توزّعت تربيته، هو الصّبيّ الوحيد، بين نهجين متناقضين: تدليل أب حنون، وتلدّيع لسان أمّ سليط، غادر العشّ ومرابح الصّبا غير آسف، غير حامل سوى حامض الذّكري، وسوى الاشفاق على أب ليس برأس امرأته، بسيدّ عائلته.

غاب يوسف... كان يمضّي مأذونيّاته في ملاهي بيروت، وبيدّد شهرّيّاته على الملذّات! لم يعد يذكر أهله بخير أم بشر! بل بشر، لأنّه هو الوحيد، انقطع عنهما وكأنّه مولود من حيّط، كما يقولون، ولا سيّما عندما نقل قيد نفوسه إلى مكان آخر من البلاد، وتزوّج غريبة، أبني ونشأ أبناؤه لا يعرفون أهل بيتهم، ولا أهل بيتهم يعرفونهم! صاروا غرباء!... كان حظّ أبو يوسف أن يذعن لحظّه! كان يبدو مرتاحاً في استسلامه لقدره. يحيا غير عابئ إلا ليومه. لكنّ صرامةً في وجهه، وكأبة في عينيه، وانكساراً في صوته، كلّه يدلّ على أنّ في قلبه جرحاً عميقاً يأبى أن يندمل! ويأبى أن يظهر أمام العيون!

ثقلت الحياة كثيراً على بو يوسف بعد هجران يوسف ذلك الهجر القتال، وبعد أن انقطع، لشيوخه، عن العمل المأجور، وبعد أن رست نجمة تلك الرّسوة اليائسة! بقي له الكرم، وبقعة

¹⁰ هجر وشرّد مجبراً. عاميّة - سريانيّة

أرض "سليخ"¹¹ وبقرة ودجاجات، يتبَلَّغ بما تنتج هذه إمساك الرَّمق! والغابة، ملك النَّاس المباح توفّر له أحطابها ليدفع بها قرسات برد الشتاء.

كان بو يوسف يبادر نجمة، في وضعه ذلك، بما ملكت يداه. ومما ملكت يداه تلك الحكمة الغريبة، حكمة الحيّات! كان يستعين على معاقره ألمه بالتدخين، كلذّة تهوّن التّباريح، يهرب إليها. كان يعشق نفس الغليون! يحبّ أن يسحبه في سكينه واسترخاء وفي مكانين يقصّر عن اختيارهما ذو غرابة وخيال... المكان الأوّل الأثير لديه: قبوة المطحنة... يعود من الغابة حوالي التاسعة صباحاً، يحمل على ظهره شقعة الحطب. يصل قبالة الطّاحون، ينزل حمله على حائط البستان، وينحدر في شريك بين العليق والدّقلي، تسلكه المعزى إلى النّهر، يجتاز النّهر صاعداً إلى القبوة. هناك، في الظّلّ والندّاوة، يفتح "الضّبوة"¹²، ويكبس الغليون الفخّاريّ بالتّنن، ويسحب النّفس ثلّو النّفس متلذّذاً خلال ساعة هنيئة، يشغل سمعه الهدير، وتحجبه الظّلال...

ولما كانت نجمة لا تترك له لحظة سكون واسترخاء، طالما هو في جوارها، يتظاهر بأنّه خارج لشأن في الكرم المجاور للبيت. يحرك الباب، ثمّ يرده من غير قفل. وإنما يردّ الباب ليمنع دخول الدّجاج لئلاً يملأ باحة البيت بمصعه. والأهمّ، منعاً لتطفّل زائر!

عندها، يخبو إلى تحت الدّشك¹³، ينتحي الزّاوية، ويبدأ بتدخين غليونه آمناً نقيق نجمة، مستقيلاً من كلّ همّ، منصرفاً إلى لحظته. جاء، مرّة، عبود ابن الجيران، في حاجة. الباب مردود. نادى:

- عمّي طنّووووووس! يا عمّي طنّوس

جاء صوت نجمة من الدّاخل:

- فوت يا حبيبي فوت. الباب مردود ردّ.

ثمّ وهي تهوّل بيدها، كأنّ الدّجاج يجتمع على الباب: كشّ

- ما في دجاج يا عمّي. مقفّف بالفّي ع الحيط... وبين عمّي طنّوس؟

- قعود. عمك طنّوس بالكرم. ما بقى إلا يوصل.

¹¹ من غير شجر

¹² حبيب من جلد

¹³ مقعد خشبيّ طويل. فارسيّة

جلس عبود على الدشك ينتظر عمه طنوس. لاحظ جو البيت أغبش أغبر! رائحة تنن! تنبه. خيط رفيع يخرج من بين رجليه، ويصعد مستعرضاً مثلويّاً وينتشر!... قبّ الستارة، يستطلع ما تحت الدشك؟!

ما كاد يفتح فمه حتى راحت سبابه عمه طنوس المتكىء، كنبيل رومانيّ على تخت لذته، تروح وتجيء إلى شفثيه أن: اسكت، اسكت...!

استقام عبود في جلسته وسكت. بعد قليل صاح:

- بخاطرك يا أم يوسف. طول عمي طنوس.
- ليش أنت قعدت؟ هلق وصلت؟ قعود. شوي وبيوصل.
- معليش. ببقى أرجع.

خرج عبود يتمتم:

- إي والله يا عمي طنوس. معك حق.

وضاحكاً بسخرية حائرة:

- وين ما كان ما في حق. الحق تحت الدشك؟!

- ماذا كان يعني عبود؟!

عبود كان يشير إلى حادثة عمر بو يوسف، والتي هزت البلدة وضيع الجوار، وتندّر بها الناس زمناً، ولا تزال الأجيال تذكرها من غير أن تعرف بطلها أو أن تذكر اسمه... كان ذلك في غمرة الانتداب الفرنسيّ على لبنان، في العشرينات من القرن العشرين...

خرجت الناس، من فضل من الناس، من الحرب العالمية الأولى منهوكةً، مصدعاً بنيان اجتماعها: قتل الجوع من قتل. هفي من شرده "السفر برلك"¹⁴. أباد الهوا الأصفر من أباد. هاجر من الأبناء من هاجر. وجرّد الجراد ما اخضرّ وأزهر! فما من عائلة إلا وتعاني من فقر وحرمان ومرض وهزال وثكل ويتم وفراق! وكي تكون حكومة الانتداب مهضومة في عيون الناس، أرسلت كميات من أغذية: سكر، أرز، طحين... يوزعها المخاتير لقاء قروش قليلة للحصّة، أكلاف نقلها.

في تلك الأثناء كان بو يوسف في الغابة يسهر على مشجرة. تأخر أياماً. عاد عصر السبت... قالت له نجمة:

¹⁴ السفر برآ. تركية. تطلق على زمن الحرب العالمية الأولى

- وزّعوا الأعاشة. ما عطونا!
 - كي ي ف؟
 - إي. وزّعوا. ما عطونا!
 - ليش؟
 - ما بعرف
 - ما ببصير!
 - صار
- سأل الجيران، قالوا: جاءت إعاشة وفرّقوها. أنت كنت غايب. تأخرت...
- الغايب حقّ ضايع؟!
 - الحاضر عنزتو بتخّف اتين
 - ما بدّي اتين. بدّي حقّي، متلي مثل كلّ الناس!
 - راجع المختار
- ذهب إلى المختار مهتاجاً:
- حصّتي من الإعاشة؟
 - والله ما بقي يا بو يوسف!
 - ليش؟ أنا ماني من هالضيعة؟ ما إلي حقّ متلي مثل غيري؟
 - بلى
 - فإذا اعطيني حصّتي من الإعاشة
 - ما بقي.
 - بدّي حقّي.
 - أنت غبت كثير. "غفّت" ¹⁵ الناس ع الإعاشة مثل الدياب. تخاطفوها. ما بقي ولا نتفه.
- ورفع المختار إبهامه إلى سنّه يشدّ عليه حتّى كاد يقتلعه تعبيراً عن نفاذ كلّ الإعاشة.
- ثار بو يوسف محتجاً:
- كيف لما بتفرّق اللّمة ع البيوت ما بتتساني. "ويركو" ¹⁶

¹⁵ هجمت. وقعت. سرّانية

¹⁶ نوع من الضرائب العثمانية. تركية

- بدفع ما بعلط، بتقطعلي وصل سلف تارجع بعد غييتي وبتطالبني. لَمَا بتعزّلو السّاقية، ولو ما الها درب عَ أرضي، بتغرّموني. لَمَا في عونهُ بتقولو يا الله يا بو يوسف تبرّع. ولَمَا أنا إلى حقّ عندكن بتعضمو حقّي. وين العدل؟ وين الحقّ؟ إي شو؟ الغنم ألكن والغرم عليي؟

- غبت كثير.

- بيتي بقي مطرحو. عيلتي فيه

- ما شفنا حدا.

- نسوان. ما بعنّو وراهن!

فاحتدّ صاحب السلطان:

- قلنّاك العالم اندبّت عَ الإعاشة، وما عاد حدا فاق عَ حدا.

- بدّي حقّي! يا مختار

- ما بقي ألك حقّ عنّا. اشتكي إن كان ما عجبك

خرج بو يوسف حانقاً، مسرعاً إلى الكنيسة... تناول حبل الجرس وراح يقرع دقات ثلاثاً متتاليات، ثمّ يقطع. إنّها دقات الحزن، وعلامة النعي.

- لمن يُقرع الجرس؟ مَنْ مات في هذه الساعة المتأخرة من النهار؟

تساءل الناس وخرجوا من بيوتهم مستظلمين... في الأحياء الأخرى، خرجوا إلى الطرقات، صعد بعض إلى السطوح يستظلمون... الجميع يتساءلون ممسكين قلوبهم بأيديهم، متوجّسين: حدث أليم ما؟ موت نسيب؟ مقتل شاب؟...

تراكض ذوو الهمة صوب الكنيسة!

بو يوسف يقرع الجرس هذا القرع بإصرار واجتهاد. لا يلتفت:

- مين مات يا عمّي بو يوسف؟

- مات الحقّ

-

ويتابع القرع بإصرار...

امتألت باحة الكنيسة بالناس...

بو يوسف لا ينفكّ يقرع ذلك القرع الحزين بإصرار...

* * *

مات الحق... مات الحق...
 قد يموت الحق إذا كان صاحب الحق ضعيفاً...
 وتناقل الناس الخبر الغريب باسمين!
 ولا يزال الكثيرون يروون الخبرية متدبرين، باسمين.

* * *

بعد زمن...

ماتت نجمة! ودعها بو يوسف بحرقه أدهشت أهل الضيعة. كان ينشج باكياً معذبته بصوت
 مخنوق. كانت دموعه تسح، ترطب وجنتيه الناشفتين، تبلل شاربيه الأبيضين، وتتقطر من
 طرفيهما لتسيل على ذقنه. جسده المتهدم كان منهذاً.
 - والله يا بو يوسف حيرت اللي ما بيتحير!
 - يا عمي كل هالقد عذبتو، كل هالقد زعل عليها؟!
 - هلزلمي كل عمرو وشغلو غريب!
 في مثل هذا تحدثت الناس أثناء الجنازة!...

لم يطول بو يوسف بعد نجمة. وكان القدر كان يدفع به دفعا. بل كأنه كان يستدفع القدر ليلحق
 بها... في الشهور القليلة، بعد غيابها، بدا يائساً، مسحوقاً، قد فارقتة "زينونيتها"¹⁷. كانت الوحدة،
 من غير معذبته، أقسى على نفسه من كل مصيبة مرت به.
 مات بو يوسف!

مات بعمر ينيف على الخامسة والثمانين، ميتة تليق ببطل عاش حياته ماشياً على شوك، قابضاً
 على جمار، متأبطاً مرارات، وارتجل أحداثاً خارجة عن المؤلف! مات في ليلة كانونية عاصفة،
 تأمر فيها عليه الريح والعنمة وأرذل العمر!

¹⁷ نسبة إلى زينون فيلسوف الأبيقورية. وهي فلسفة تمجد البطولة والعزم والإرادة والصبر واحتمال الألم

كان يحدل السطح، وقد وضع في أتناك رماداً صبّ فوقه الكاز. أشعل الأتناك ووزّعها على
 أطراف السطح ليعرف حدوده. هبّت الرّيح، انكبّ "الماروخ"¹⁸! انطفأ اللّهب، ضاعت الحدود،
 غامت عينا بو يوسف، خذله عزمه. سقط عن السطح... وهو يناضل الحياة!
 بقي بو يوسف نقيع المطر، جتّة هامة حتّى ضحى اليوم التّالي!
 دقّ الجرس حزناً.
 مات بو يوسف!
 الموت حقّ.

¹⁸ الدفقة الشديدة من المطر. عاميّة- سريانيّة